رحلة ابن فطومة

١

رحلة ابن فطومة

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار الشروق

الوطـــــن

الحياة والموت، الحلم واليقظة، محطات للروح الحائر، يقطعها مرحلة بعد مرحلة، متلقيا من الأشياء إشارات وغمزات، متخبطا فى بحر الظلمات، متشبثا فى عناد بأمل يتجدد باسما فى غموض. عم تبحث أيها الرحالة؟، أى العواطف يجيش بها صدرك؟. كيف تسوس غرائزك وشطحاتك؟، لم تقهقه ضاحكا كالفرسان؟، ولم تذرف الدمع كالأطفال؟ وتشهد مسرات الأعياد الراقصة، وترى سيف الجلاد وهو يضرب الأعناق، وكل فعل جميل أو قبيح يستهل باسم الله الرحمن الرحيم. وتستأثر بوجدانك ظلال بارعة براعة الساحر مثل الأم والمعلم والحبيبة والحاجب، ظلال لا تصمد لرياح الزمن ولكن أسماءها تبقى مكللة بالخلود. ومهما نبا بى المكان فسوف يظل يقطر ألفة، ويسدى ذكريات لا تنسى، ويحفر أثره فى شغاف القلب باسم الوطن. سأعشق ما حييت نفثات العطارين، والمآذن والقباب، والوجه الصبيح يضئ الزقاق، وبغال الحكم وأقدام الحفاة، وأناشيد الممسوسين وأنغام الرباب، والجياد الراقصة وأشجار اللبلاب ونوح اليمام وهديل الحمام. وتحدثنى أمى فتقول:

ـ يوم مولدك .

وتهز رأسها جميل التكوين فأقول بحبور :

ـ بل يومك هو الأصل !

كان أبى محمد العنابى تاجر غلال مترعا بالثراء . أنجب سبعة تجار مرموقين، وعمر حتى جاوز الثمانين متمتعا بالصحة والعافية . وفى الثمانين رأى أمى الجميلة فطومة الأزهرى وهى بنت سبعة عشر ، آخر عنقود جزار يدعى الأزهرى قطائف فغزت قلبه وتزوج منها وأقام معها فى دار رحيبة اشتراها بإسمها محدثا فى أسرته غضبا وشغبا . اعتبر إخوتى الزواج لعبة قذرة غير مشروعة، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضى وكبير التجار ولكنه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة، فاعتد الزواج حقا لا يقبل المناقشة، وفارق السن وهما يتعلل به المغرضون، وراح ينهل من معين سعادته بقلب ملئ بالثقة .

ـ وجاء مولدك مؤكدا للهزيمة مجدداً للغضب !

وأقول لها كثيراً :

ـ لا حد لطمع الإنسان !

فمنذ حداثتى وأنا أتلقى أجمل الكلمات رغم ارتطامى بأقبح الفعال . وسمانى أبى «قنديل» ولكن إخوتى اطلقوا على «ابن فطومة» تبراء من قرابتى وتشكيكا فيها . ومات أبى قبل أن يطبع صورته فى وعيى تاركا لنا ثروة نضمن حياة رغدة حتى آخر العمر . وقطعت الخصومة ما بيننا وبين اخوتى . وخافتهم أمى

على نفسها وعلى فأطاحت بها الوساس والظنون حتى قررت ألا ترسلنى الى الكتاب. فعهدت بى الى الشيخ مغاغة الجبيلى - وكان جارا لأسرتها - ليلقننى العلم فى دارى. وعنه تلقيت دروسا فى القرآن والحديث واللغة والحساب والأدب الفقه والتصوف والرحلات. كان فى الأربعين، قويا مهيبا، ذا لحية رشيقة وعمامة عالية، وجبة أنيقة، وعينين لامعتين ثاقبتى النظرة، يمد صوته المليء عند القاء الدرس، ويرسله على مهل وهدوء، ويذلل الصعب بجودة الشرح ورقة الابتسامة. وكانت أمى تتابع الدروس باهتمام مستفيدة من فراغها الطويل، تنصت من وراء ستار ونحن فى القاعة شتاء، ومن وراء خصاص ونحن فى السلاملك فى بقية الفصول، وكانت تقول لى:

- أراك سعيدا بمعلمك، وهذا حظ حسن..

فأقول لها بحماس:

- انه شيخ عظيم..

وكان يخصص وقتا للمناقشة، فيطرح مايرى من أسئلة ولكنه يدعونى لإعلان خواطرى ويعاملنى معاملة الراشدين.

ويوما - لا أذكر فى أى فترة من العمر - سألته:

- اذا كان الاسلام كما تقول فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء والجهلاء؟!

فأجابنى بأسى:

- الإسلام اليوم قابع فى الجوامع لا يتعداها الى الخارج! ويفيض فى الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه . . حتى الوالى لايسلم من شره . وقلت له :

- إذن إبليس هو الذى يهيمن علينا لا الوحى .

فقال برضا :

- أهنئك على قولك ، إنه أكبر من سنك . .

- والعمل يا سيدنا الشيخ؟

فقال بهدوء :

- أنت ذكى ، وكل آت قريب . .

أما حديثه عن الرحلات فمثار للعشق والسرور . وتكشف فى مجرى حديثه عن رحالة قديم . قال :

- عرفت الرحلات فى صحبة المرحوم أبى فطوفنا بالمشرق والمغرب . .

فأقول بلهفة :

- حدثنى عن مشاهداتك يا سيدنا .

فحدثنى بسخاء حتى عايشت بخيالى ديار المسلمين المترامية ، وتبدى لى وطنى نجما فى السماء مكتظة بالنجوم . وقال :

- ولكن الجديد حقا لن تعثر عليه فى ديار الإسلام!

وتتساءل عيناى عن السبب فيقول :

ـ جميعها متقاربة فى الأحوال والمشارب والطقوس، بعيدة كلها عن روح الإسلام الحقيقى، ولكنك تكتشف ديارا جديدة وغريبة فى الصحراء الجنوبية . .

أثار أشواقى لدرجة الاشتعال ثم قال :

ـ قمت بتلك الرحلة وحدى عقب وفاة أبى، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب والجبل، ولكن القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهلية فى دار الأمان . .

ويحدجنى بنظرة غريبة ثم يقول :

ـ وهى ديار وثنية!

فهتفت :

ـ أعوذ بالله!

ـ ولكن الغريب لايلقى فيها أو فى الطريق إليها إلا الأمن لحاجتها الملحة الى التجارة والسياحة . .

فهتفت مرة أخرى :

ـ ولكنها ملعونة . .

فقال بهدوء :

ـ لا حرج على المشاهد .

ـ ولِمَ لم تعاود الكرة؟

ـ ظروف الحياة والأسرة أنستنى أهم هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل .

فسألته بشغف :

ـ وما خطورة دار الجبل؟

فقال متنهدا :

ـ تسمع عنها الكثير ، كأنها معجزة البلاد ، كأنها الكمال الذى ليس بعده كمال . .

ـ لا شك أن كثيرين من الرحالة قد كتب عنها . .

فقال بنبرة لم تخل من أسى :

ـ لم أصادف فى حياتى آدميا ممن زاروها ، ولا وجدت كتابا عنها أو مخطوطا . .

فقلت بضيق :

ـ إنه أمر عجيب لا يصدق . .

فقال بكآبة :

ـ إنها سر مغلق . .

وكأى سر مغلق شدنى إلى حافنه ، وغاص بى فى ظلماته ، وضرم النار فى خيالى ، وكلما ساءنى قول أو فعل رفت روحى حول دار الجبل . وراح الشيخ مغاغة الجبيلى ينور عقلى وروحى ويبدد الظلام من حولى ، ويوجه أشواقى الى أنبل ما فى الحياة .

وسعدت أمى بما أكتسبه يوما بعد يوم، وشاركت فى تكوينى بحبها وجمالها. متوسطة الطول كانت، رشيقة العود، تنضح بشرتها بالبياض والصفاء والملاحة. ولم تتردد مرة عن إعلان إعجابها بجمالى ولكنها قالت لى بنفس الصراحة:

ـ كلامك كثيرا ما يكدر صفوى..

وتساءلت عن السبب فقالت:

ـ كأنك لاترى إلا الجانب القبيح من الحياة!

ولم تكن تنكر أقوالى أو ترى فيها أى مبالغة، ولكنها أفصحت عن إيمانها قائلة:

ـ الله صانع كل شئ، وله فى كل شئ حكمة..

فقلت مندفعا:

ـ ساءنى الظلم والفقر والجهل!

فقالت بإصرار:

ـ الله يطالبنا بالرضا فى جميع الأحوال.

وطرحت الموضوع للمناقشة مع الشيخ ولكن موقفه كان واضحا تماما فهو يؤمن بالعقل وحرية الاختيار ولكنه همس فى أذنى برقة:

ـ تجنب ازعاج والدتك..

وهى نصيحة انسقت الى اتباعها مدفوعا ومدعما بحبى الكبير

لها، ولم أجد فى ذلك مشقة فقد كانت سذاجتها تعادل جمالها نفسه. غير أن الأيام التى وهبتنى الدرس والتربية دفعت بى أيضا الى مشارف الشباب فهطلت السماء بأمطار جديدة، وتجلت مشاهدها على ضوء مشاعل جديدة. ويسألنى الشيخ مغاغة الجبيلى:

ـ ماذا نويت أن تعمل فى هذه الحياة التى لا تكتمل الا بالعمل؟

ولكنى كنت أرى حليمة عدلى الطنطاوى بعين جديدة. طالما رأيتها على عهد الصبا وهى تقود أباها الضرير قارئ القرآن. لهم بيت صغير قديم فى حارتنا التى تقوم فيها دارنا متألقة كالكوكب. وكان اهتمامى يتجاوزها الى أبيها بقامته النحيلة وعينيه المطموستين وأنفه الغليظ المجدور. أثار عطفى ودهشتى، وأعجبنى صوته وهو يؤذن للصلاة متطوعا أمام باب داره. وحولتنى الأيام اللاهثة الى البنت فاكتشفتها من جديد. كانت أرض الحارة زلقة غب مطر خفيف، وكان الشيخ يسير بحذر مسلما يسراه لابنته ويمناه على عصاه الغليظة تتحسس له مواضع قدميه بضربات متتابعة كمنقار دجاجة تنقب عن حب. وسايرته حليمة غائصة فى جلباب فضفاض غامق اللون لايظهر من خمارها المسدل إلا عينان، ولكن هيئتها تمثلت لعينى المشربتين بماء الفتوة أنثى كاملة، تتجسد جواهرها المستورة كلما خفق النسيم بجلبابها كأنها جمرات تحت رماد. وزلت قدمها أو كادت فشدت عضلاتها بسرعة لتحفظ توازنها فتحرك رأسها حركة نافرة أطاحت بطرف الخمار عن وجهها فانطبع بتمامه على بصرى

غارسا حسنه فى أركان وجدانى. تلقيت فى لحظة عابرة رسالة طويلة مشحونة بكافة الرموز التى تقرر مصير قلب. وسألتنى أمى بناء على ما سمعته من حديث الشيخ مغاغة عن العمل الذى تكتمل به الحياة:

- ألا توافقنى أنه لا يصلح لك إلا التجارة؟

فأدهشتها اذ قلت:

- إنى أفكر فى الزواج أولا!

ورحبت بحرارة مؤجلة الحديث عن «العمل» وراحت تصف لى بعض بنات التجار ولكنى أدهشتها مرة أخرى وأنا أقول:

- وقع اختيارى على حليمة بنت الشيخ عدلى الطنطاوى..

تلقت أمى صدمة لم تدارها وقالت:

- إنها دون المطلوب فى كل شئ!

فقلت بإصرار:

- ولكنى أريدها..

فقالت باستياء متجهمة الوجه:

- ستشمت بنا اخوتك!

ولكن إخوتى كانوا كشئ لم يكن. وشعورى بأنى رجل الدار كان يتعاظم مع الوقت. وهى لم تعاندنى وإن ضنت على بالموافقة، وفى الوقت نفسه لم تفقد الأمل. وإذا بالأمور تجرى مع

رغباتى وان يكن بثمن باهظ . مضت معارضة أمى تخف حتى قالت لى مسلمة :

ـ سعادتك أغلى عندى من أى شئ أو اعتبار . .

وفى الحال قامت بما ينتظر منها فذهبت من السراى الى البيت المتهرئ وخطبت لى حليمة . ومرة تالية صحبتنى معها فجالسنا الشيخ عدلى الطنطاوى وحرمه ، ودخلت العروس فأبدت ما يسمح به الشرع بابدائه من الوجه واليدين ، ومكثت دقائق معدودة ثم ذهبت . ومضى الاستعداد للزواج بسرعة محمودة . ولاحظت يوما أن أستاذى الشيخ مغاغة الجبيلى يعانى ارتباكا غير معهود ، وأنه يحدثنى بنبرة جديدة تماما . قال بهدوء وهو ينظر الى مركوبه :

ـ ثمة أمر هام يا قنديل .

فأثار اهتمامى لأقصى درجة فقلت :

رهن إشارتك يا مولاى . .

فقال بأسى :

ـ لم أعد أطيق وحدتى . .

كان الشيخ أرمل ، وقد أنجب ثلاث بنات تزوجن وقررن فى بيوتهن . سألته ببراءة :

ـ ولم تبقى وحيدا ؟ . . ألم يتزوج النبى عليه الصلاة والسلام عقب وفاة السيدة خديجة ؟ !

ـ صدقت وهذا ما أفكر فيه . .

فقلت بحماس :

ـ وإنك لرجل ترحب به كرام الأسر .

فقال بحياء :

ـ ولكن مطلبى فى أسرتك بالذات !

فدهشت وأحدق بى انزعاج شامل . تساءلت :

ـ أسرتى ؟ !

فأجاب بخشوع :

ـ أجل ، الست والدتك !

فقلت بعجلة :

ـ ولكن والدتى لا تتزوج !

ـ لم يا قنديل ؟

فحرت قليلا ثم قلت :

ـ إنها أمى !

فقال بهدوء :

ـ الزواج شريعة الله سبحانه ، ولن يهون عليك أن تتزوج وتترك أمك وحيدة !

صمت قليلا ثم قال :

ـ الله يهدينا إلى سواء السبيل . .

في وحدتى تلاطمت أفكارى، وترتبت الأحداث فى خيالى فى صورة جديدة كئيبة. قلت لنفسى إن إذعان أمى المفاجئ لرغبتى فى الزواج من حليمة ليس إلا نتيجة لرغبتها فى الزواج من الشيخ مغاغة الجبيلى. حصلت أمور بريئة من وراء ظهرى ولكنها اعترضت حلقى، وجدت نفسى فى موقف دقيق حرج ما بين أعز شخصين فى حياتى وبين غضبى وسخطى وحيائى. وهتفت من أعماقى:

ـ اللهم جنبنى الظلم والحمق..

الحق أننى سلكت سلوكا هو أحق بشخص أكبر منى سنا وتجربة. تركت الأمور تجرى كما يشاء الله، وأقنعت نفسى المتمردة بأن الزواج حق للرجل والمرأة، وأن أمى ليست أما خالصة ولكنها امرأة أيضا، وأننا خلقنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها، ونتلقى نصيبنا من السرور والألم بشجاعة المؤمنين. وحملت التجربة بكافة أبعادها على عاتقى وفاتحت أمى بالموضوع بصراحتى المألوفة. وأبدت دهشة أحنقتنى وتمتمت:

ـ ما خطر لى ذلك ببال..

فقلت ببرود:

ـ ولكنه حق وعدل.

ومضيت أهضم خيبتى على حين قالت هى فى تلعثم:

ـ أريد فرصة للتفكير..

اعتبرت ذلك أول اشارة للموافقة لتناقضه الشديد مع أسلوب الرفض الواضح، وانتظرت بقلب كئيب، حتى همست لى فى حياء وارتباك :

ـ لتكن مشيئة الله !

وتأملت كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة، وكيف نداری حیاءنا بقبسات الوحى الإلهى. وجرى الاستعداد المألوف لزواج الابن والأم، وتم الاتفاق على انتقال أمى الى دار الشيخ مغاغة وهى دار حسنة، وانتقال حليمة الى السراى. وصممت على أن ألوذ بالسعادة المتاحة نافضا عن ذيلى رواسب الأكدار. ولكن هبط علينا قدر فنسف خطتنا. زحم حياتنا الهادئة الحاجب الثالث للوالى فاقتحمنا كعاصفة. رأى ذات يوم حليمة فقرر أن يجعل منها زوجته الرابعة. وذعر الشيخ عدلى الطنطاوى وقال لأستاذى الشيخ مغاغة :

ـ لا قبل لى بالرفض !

وفسخ الخطوبة وهو يرتعد، فزفت حليمة الى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة. انطويت على نفسى ذاهلا وأنا أتساءل عن قلب حليمة، عن مشاعرها الدفينة، هل شاركتنى ألمى أو أن لألاء الملك أسكرها وبهر عينيها. ووجدتنى فى وحدتى أقول لنفسى :

ـ خاننى الدين، خانتنى أمى، خانتنى حليمة، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة . .

بدا كل شئ كالحا، وبدءا من أبسط الأفراد مثل الشيخ عدلى

الطنطاوى حتى الوالى نفسه، مرورا بأناس ومعاملات تستحق الطوفان ليحل محلها عالم جديد نظيف. لم أتأثر بعطف أمى وحزنها، ولا حكم الشيخ مغاغة التى ذرها على، بدت لى الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر. وقالت لى أمى:

- يجب أن تتزوج فى أقرب وقت ولعل الله يدخر لك أفضل مما اخترت!

فهززت رأسى رافضا، فقال الشيخ مغاغة:

- اشرع فى العمل بلا تأخير.

فهززت رأسى أيضًا.. فقال الرجال:

- لديك ولا شك خطة..؟

فقلت معربا عن عواطفى الجائحة:

- أن أقوم برحلة!

فتساءلت أمى فى انزعاج:

- أى رحلة؟.. إنك لم تكد تبلغ العشرين من عمرك!

فقلت:

- هى أنسب سن للرحلة..

ونظرت الى أستاذى مليا وقلت:

- سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولكنى لن أتوقف كما توقفت بسبب الحرب الأهلية التى قامت فى الأمان، سأزور الأمان

والغروب ودار الجبل، أى وقت يلزمنى لذلك؟ فقال الشيخ مغاغة الجبيلى وهو يلحظ أمى باشفاق:

ـ يلزمك عام على الأقل إن لم يزد.

فقلت بتصميم:

ـ ليس هذا بالكثير على طالب الحكمة، أريد أن أعرف، وأن أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى..

وهمت أمى بالكلام ولكنى سبقتها قائلا بحزم:

ـ أنه قرار لا رجعة فيه..

واستحوذ على الحلم، وتلاشى الواقع، وتراءت دار الجبل لعين خيالى كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم، فنضجت الرغبة الأبدية فى الرحلة على لهيب الألم الدائم. أذعن الشيخ مغاغة الجبيلى للواقع فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا. كان فى الأربعين، يدعى القانى بن حمديس، قوى البنيان والرأى. قال الشيخ مغاغة:

ـ أود أن يذهب معك ويرجع معك.

فقال الرجل:

ـ هذا يتوقف على رغبته، نحن نقيم فى كل دار عشرة أيام، فيمضى معنا من يقنع بها ويتخلف من يروم المزيد، وعلى أى حال توجد قافلة كل عشرة أيام..

فقال لى الشيخ مغاغة:

ـ عشرة أيام فيها الكفاية . .

فقلت :

ـ أعتقد ذلك . .

أما أمى فركزت على مسألة الأمن فقال لها الرجال بوضوح :

ـ لم تتعرض قافلة لهجوم أبدا ، إن أهل البلاد لا يحظون بعشر معشار ما يحظى به الغريب من حماية . .

وأخذت فى الاستعداد للرحلة مسترشدا بأستاذى الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والأقلام والكتب . ورأيت أن يتم زواج أمى بالشيخ قبل رحيلى ، غير أن الشيخ انتقل إلى السراى حتى لا تهجر بلا ساكن . ولبستنى حال جديدة ، فقل تفكيرى فى أحزانى ، وهيمنت الرحلة على حواسى ، انفسح أمامى مجال غير محدود للأمل . .

ودعتنى أمى وداعا حارا دامعا وهى تقول :

ـ أغنانا الله عن ذلك كله ولكنها إرادتك !

فقلت لنفسى : «على أى حال لم أتركك وحدك» وصحبنى الشيخ مغاغة الجبيلى إلى ميدان المكوس فبلغناه قبيل الفجر ، ورأينا القافلة على ضوء المشاعل . امتد الظلام حولنا يتنفس نسائم الربيع وفوقنا ترامقت النجوم الساهرة . همس الشيخ مغاغة فى أذنى :

ـ لا تتخلف عن قافلة ابن حمديس .

على حين ارتفع صوت صاحب القافلة وهو يهتف :

ـ السير عقب صلاة الفجر .

ورآنا فصافحنا وقال لى :

ـ جميع الرفاق من التجار وأنت الرحالة الوحيد بيننا !

فلم يسرنى ذلك ولم أتكدر له . وارتفع صوت الأذان محلقا فوق الرءوس فمضينا نحو جامع السوق، وانتظمنا فى آخر صلاة جامعة تتاح لنا . وانطلقنا من الجامع إلى القافلة فاتخذنا مجالسنا مع الحقائب . وبدأ الطابور يتحرك على إيقاع حاد فغاص قلبى بحنين الوداع وتحركت فى أعماقه ذكريات أمى وحليمة فى غلاف من ذكريات الأسى الشامل الذى يحتوى وطنى كله . وغمغمت فى أحضان الظلام :

ـ اللهم بارك خطاى .

وأخذت الظلمة ترق، وتلوح بشائر النور الموعود فى الأفق، حتى تخضب بحمرة باسمة وبزغ حاجب الشمس، ناشرا الضياء فوق صحراء بلا حدود . تجلت القافلة خطا راقصا فى صفحة كونية متحدية بالجلال، وانغمر جسمى فى حركة رتيبة متتابعة تحت موجات من نور متدفق، وهواء سابح، وحرارة تتصاعد منذرة بالعنف، ومنظرثابت بين رمال صفراء وسماء زرقاء صافية . لذت من المنظر الواحد بنفسى فغصت فى ذكرياتها الملحة وانفعالاتها المرة، وأحلامها الوردية . وعند كل عين ماء كنا نتوقف للطعام والوضوء والصلاة والسمر . عرفت نخبة من الرفاق التجار ورمقوا «الرحالة الوحيد» بنظرات غريبة . وقلت مفسرا ومتباهيا :

ـ سأذهب حتى دار الجبل !

فتساءل أحدهم باستهانة :

ـ وما دار الجبل ؟

وقال ثان بفخار : ـ نحن دار الإسلام . .

وقال ثالث :

ـ التجارة من العمران والله يأمرنا بالعمران . .

وقال رابع :

ـ كان النبى عليه الصلاة والسلام تاجرا .

فقلت كالمعتذر :

ـ وكان أيضا رحالة ومهاجرا !

فقال الأول :

ـ ستبدد ثروتك فى الترحال وترجع إلى بيتك فقيرا . .

فقلت كاظما غيظى :

ـ لا يعرف الفقر من يؤمن بالعمل . . .

وكنت أحترم التجارة ولكننى آمنت بأن الحياة رحلة كما هى تجارة . وتتابعت الأيام طويلة وثقيلة ، حارة بالنهار باردة بالليل ، رأيت النجوم كما لم أرها من قبل جليلة ساحرة لا نهائية ، وعرفت أن حزنى من أمى أكبر مما تصورت ، وأن حبى لحليمة أقوى من أن يؤثر فيه الليل والنهار والنجوم والتطلع نحو المجهول . وسرنا ما يقارب الشهر حتى لاحت لنا من بعد أسوار دار المشرق . عند ذلك قال القانى بن حمديس :

ـ سنعسكر عند العين الزرقاء ، وندخل الدار عند منتصف الليل . وأعددنا أنفسنا . ولما صلينا العشاء سمعت من يهمس :

ـ آخر صلاة حتى نرجع من بلاد الوثنية!

فامتغضت كثيرا ولكنى كنت أعد نفسى لحياة جديدة فقلت لنفسى: «الله غفور رحيم».

وقبيل منتصف الليل تقدمت القافلة من الدار الجديدة. وقابلنا عند المدخل رجلاً عارى الجسد إلا من وزرة تستر العورة، بدا طويلا نحيلا على ضوء المشاعل، وقال الرفاق إنه مدير الجمرك. قال الرجل بصوت جهورى:

ـ أهلا بكم فى المشرق عاصمة دار المشرق، إنها ترحب بالتجار والرحالة، ومن يلزم حدوده فلن يلقى إلا الطيب والجميل.

ودخلت القافلة بين صفين من الحراس، فمضى التجار إلى السوق، ومضى بى دليل إلى فندق الغرباء. أناخ الجمل أمام سرادق كبير كأنه ثكنة، وحمل الدليل حقائبى إلى الداخل فأدركت أنه فندق الغرباء.. كان سرادقا كبيرا منقسما إلى جناحين يفصل بينهما بهو ممتد، وكل جناح يحوى غرفا متلاصقة أضلاعها مبنية من الأقمشة الوبرية. وكانت الحجرة التى اختيرت لى بسيطة بل بدائية، أرضها رملية، وبها فراش عبارة عن خشبة مطروحة على الأرض، وسحارة للملابس، وشلتة فى الوسط. وما أن فرغت من تفقد حقائبى حتى هرعت إلى الفراش بحنين شخص حرم من الرقاد الطبيعى شهرا كاملا، فنمت نوما عميقا حتى أيقظنى حر النهار. ونهضت كالمتوعك، ومرقت إلى البهو فوجدته مكتظا بالنزلاء وقد جلسوا أمام حجراتهم يفطرون.

وجاءنى رجل قصير لا يخلو من بدانة مؤتزرا بما يغطى العورة وقال لى باسما :

ـ أنا فام صاحب الفندق ، هل قضيت ليلة مريحة؟

فقلت والعرق يسيل فوق جبينى :

ـ شكرا .

ـ هل آتيك بالفطور؟

فقلت بلهفة :

ـ بل أريد الحمام .

وقادنى إلى نهاية البهو فأزاح ستارة فوجدت ما يلزمنى لأغتسل وأمشط شعر رأسى ولحيتى الصغيرة . وعدت نحو غرفتى فوجدت فام قد جاء بطبلية وراح يعد لى الفطور . سألته :

ـ هل أستطيع أن أصلى فى غرفتى؟

فقال محذرا :

ـ قد يراك أحد فتتعرض لما يسوءك . .

وجاءنى بإناء به تمر ولبن وفطيرة شعير فأكلت بسرور حتى شبعت . وقال لى :

ـ كنت ذات يوم ممن يعشقون الرحلات .

فسألته :

ـ أأنت من المشرق؟

ـ أصلى من الصحراء ثم استقر بى المقام فى المشرق . .

سرنى أن أجد فيه رحالة قديما فقلت :

ـ دار الجبل هى الهدف الأخير من رحلتى . .

ـ وهى هدف الكثيرين ولكن أسباب الرزق حجزتنى عنها . .

فسألته بلهفة :

ـ ماذا تعرف عنها يا سيد فام؟

فأجاب باسما :

ـ لا شئ إلا ما توصف به أحيانا كأنما هى معجزة الدهر ، ومع ذلك لم أصادف رجلا . واحدا ممن زاروها . .

وقال لى صوت باطنى بأننى سأكون أول ابن لآدم يتاح له أن يطوف بدار الجبل ثم يعلن سرها للعالمين . وسألنى :

ـ هل تمكث طويلا فى المشرق؟

ـ عشرة أيام ثم أذهب مع قافلة القانى بن حمديس . .

ـ عظيم ، سر وانظر وتمتع بوقتك ، وحسبك غطاء للعورة ولا تزد عن ذلك . .

فقلت مستنكرا :

ـ لا أستطيع أن أخرج بلا عباءة .

فقال ضاحكا :

ـ سترى بنفسك ، نسيت أن أسألك عن اسمك الكريم؟

ـ قنديل محمد العنابى .

فرفع يده إلى رأسه تحية وذهب . غادرت الفندق فى الضحى متلفعا بعباءة خفيفة واسعة المسام ، لابسا عمامتى لتقينى الشمس . وأنا أعجب من حرارة الربيع وأتساءل عن حرارة الصيف كيف تكون . ولدى مغادرتى الفندق هالنى أمران ، العرى والفراغ .

الناس والنساء منهم والرجال على السواء ، عرايا تماما كما ولدتهم أمهاتهم . والعرى عادة مألوفة لا تلفت نظرا ولا تثير اهتماما ، كل ذاهب لوجهته ، ولا يثير الغرابة إلا الغرباء أمثالى لما يرتدون من ملابس . والأجساد نحاسية اللون ، نحيلة لا من رشاقة ولكن من قلة الغذاء فيما يبدو وإن غلب عليهم الرضى بل والمرح . وجدت مشقة لأزيل عن وجدانى الشعوربالشذوذ لملابسى التى أرفل فيها ، ووجدت مشقة أكبر فى صرف بصرى عن مشاهد العرى المثيرة وما بعثته فى دمائى من نيران متأججة . وقلت لنفسى :

ـ يا لها . من دار تقذف بمن كان فى شبابى إلى فتنة محرقة !

أما الأمر الغريب الثانى فهو هذا الفراغ الممتد المترامى ، كأنما انتقلت من الصحراء إلى صحراء . أهذه هى حقا عاصمة المشرق؟ أين القصور ، أين البيوت ، أين الشوارع ، أين الحوارى؟؟ . لاشئ

إلا أرضا تعلو جوانب منها أعشاب ترعاها الماشية، وثمة تجمعات هنا وهناك من خيام تقوم على غير نظام، يتجمع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر والمعيز. وهن عرايا أيضا، وجمالهن لا بأس به ولكن تخفيه القذارة والإهمال والفقر. الحق أنى لم أتماد فى نقد مظاهر البؤس فى هذا البلد الوثنى الذى قد يكون له من وثنيته عذر، ولكن أى أعتذر به عن أمثال هذه المظاهر فى بلدى الإسلامى؟. وقلت لنفسى:

ـ أنظر وسجل واعترف بالحقيقة المرة.

وفيما عيناى تدوران فى حيرة ودهشة استحوذ علىَّ شعور بالهيمان استخرج من أعماقى العاشق الكامن. تذكرت حليمة بقوة مهيمنة وغشيت صورتها الأرجاء مع الحرارة وأشعة الشمس. وحرت من أمرى وقتا ولكنى لمحت فتاه تعدو، قادمة من ناحية الفندق متجهة كالسهم نحو بقعة مزدحمة وغاصت فى عبابها فتوارت عن عينى. لعلى لمحتها وهى ذاهبة أيضا. لعلى لمحتها وأنا مشغول بالمشاهد فأحدثت أثرها وأنا شبه نائم أو ذاهل. إنها وراء ما اجتاحنى من انفعال وجدانى عميق. حقا إنها مشرقية نحاسية عارية ولكن تكوين وجهها صورة قريبة جدا من صورة حلمية حبيبتى المفقودة، بل قررت أن أقتنع بأنها حلمية المشرق، وأننى سأراها مرة أخرى. وانتقلت من مكان إلى مكان، لا أرى جديدا، أكابد فتورا يتزايد، وقلبى ينسحق تحت الأسى والشجن، وخيالى يبحث عن حليمة المشرق. فى الغربة أتخلق من جديد فى صورة جديدة. تتكون فى أعماقى اندفاعات جريئة لإشباع

الرغبات وممارسة المغامرات. إنى أتخلى عن حضارة وأسلم لحضارة جديدة. أتوق إلى الحياة بعيدا عن الرقباء. الرقباء الذين يتجسدون فى الخارج والذين ينبضون فى الداخل. ووجدتنى عند العصر على حافة خلاء جديد لا أدرى كيف ساقتنى إليه قدماى المتعبتان. خلاء نظيف خال من الماشية ومن الرعاة تحف به من الجانبين أشجار عالية ضخمة لم أر مثلها من قبل، ويقوم فى أعماقه قصر ذو سور محيط. يحرس مداخله طابور من الفرسان المدججين بالسلاح. ولم يكن بالساحة إلا نفر من الغرباء أمثالى يقلبون أعينهم فى دهشة وإعجاب. كيف قام هذا القصر بين الخيام؟.. إنه ولاشك قصر ملك المشرق، وطبعا غير مسموح بزيارته، وكنت ظننت أن رئيس المشرق ما هو إلا شيخ قبيلة يقيم فى خيمة تناسبه حجما وأناقة. وسألت أحد الغرباء:

ـ أهو قصر الملك.

فأجاب باهتمام:

ـ هذا ما يبدو.

الحق أنه لا يقل فخامة عن قصر الوالى فى وطنى ولكنه يبدو غريبا مقطوع الصلة بما حوله. وأخذ الجو يلطف، ويسفر عن وجهه الربيعى، ولكن شعورى بالتعب والجوع انفجر كالغول فرجعت ألتمس سبيلى إلى الفندق. ووجدت فام صاحب الفندق جالسا على أريكة من سعف النخل عند المدخل فلقانى بابتسامة وقال:

ـ هل تناولت غداءك فى السوق؟

فقلت بعجلة:

ـ لم أعرف موقع السوق بعد والجوع ينهشنى أيها الرجل الكريم . .

وجلست أمام الطبلية أمام حجرتى فجاءنى فام بخبز الشعير وشريحة من لحم البقر مقلية فى الدهن مخففة بالخل وطبق ملئ تمرا وسفرجلا وعنبا، وسألنى:

ـ هل آتيك بخمر البلح . . ؟

فقلت وأنا أقبل على الطعام بنهم:

ـ أعوذ بالله .

فتمتم الرجل:

ـ الخمر موسيقى الرحلات!

أكلت حتى شبعت، واستأذنته فى الجلوس معه على الأريكة فرحب بى جدا، فجلسنا والمساء يتيه بقمر يوشك أن يصير بدرا . تلقيت نسائم عذبة غريبة كل الغرابة عن قيظ النهار، وسرعان ما زحف على الهدوء والاسترخاء . قال فام:

ـ توجد خيام للضرب والرقص ما يتمناه الغريب . .

فقلت:

ـ فلنؤجل ذلك إلى وقت . .

ـ هل أعجبك ما رأيت؟

فقلت بفتور :

ـ لاشئ يستحق المشاهدة سوى القصر ولكنى فى حاجة إلى معلومات لايعثر عليها عادة فى الطريق . .

ـ صدقت فيما قلت . .

ـ قصر الملك آيه من الآيات!

فقال باسما :

ـ لا يوجد ملك فى دار المشرق!

لعله قرأ الدهشة فى وجهى فواصل :

ـ دار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن، لكل مدينة «سيد» هو مالكها، يملك المراعى والماشية والرعاة، الناس عبيده، يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن، فالقصر الذى شاهدت هو قصر سيد العاصمة، هو أكبر السادة وأغناهم ولكن لا هيمنة له على أحد منهم، ولكل سيد قوة مسلحة من المرتزقة يجلبهم عادة من الصحراء . .

يا له من نظام غريب! . إنه يذكرنى بالقبائل الجاهلية ولكنه مختلف، كما يذكرنى بملاك الأرض فى وطنى ولكنه مختلف أيضا . جميعها تمثل درجات متفاوته من الظلم، وعلى أى فإثمنا ـ نحن دار الوحى ـ أفظع من سائر الخلق . أخذت حذرى فاكتفيت بالإصغاء حابسا ملاحظاتى النقدية كما يجدر بالغريب . وسألته :

ـ كيف شيد هذا القصر الباهر وجميع رعيته من الرعاة البسطاء؟
فأجاب فام فى مباهاة :

ـ جاء بالمهندسين والعمال من دار الحيرة، وزوده بأجمل الأثاث والتحف التى تفخر بصنعها دار الحلبة . .

وصمت قليلا ثم قلت :

ـ حدثنى يا سيد فام عن دينكم . .

ـ أهل المشرق جميعا يعبدون القمر، فى ليلة البدر يتجلى الإله فى تمامه فيهرعون إلى الخلاء ويحيطون بالكاهن للصلاة، ثم يمارسون طقوسه رقصا وغناء وسكرا وغراما . .

فذهلت كثيرا ثم تساءلت :

ـ وبذلك يضمنون الخلود فى الجنة؟

ـ لا نعرف خلودا ولا جنة، وليس لنا إلا ليلة البدر!

فترددت قليلا ثم سألت :

ـ ألا يوجد طب وتعليم؟

فقال باستهانة :

ـ أبناء السيد يتعلمون الفروسية ومعلومات عن الإله القمر، وفى كل قصر طبيب وارد من الحيرة أو الحلبة، أما الناس فيتركون للطبيعة، ومن يصبه مرض يعزل حتى يبرأ أو يموت فتأكله الجوارح . .

فنظرت إليه كالمتسائل فاستدرك :

ـ إنها سنة القمر وتعاليمه وهى تتوافق مع الحياة تماما ، لذلك فنحن شعب يغلب عليه المرح والرضى ، نحن أسعد الشعوب يا سيد قنديل !

قلت لنفسى إنه فقدان الوعى بلا زيادة ولا نقصان ولكنى قلت له :

ـ هنيئا لكم يا سيد فام !

وقضيت شطرا من الليل وأنا أدون فى دفترى تاريخ الرحلة ومشاهدها ، وقطعت شطرا آخر مسهداً أفكر فيما صادفنى من أحوال وأفكار ، وأتأمل عذابات الإنسان فى هذه الحياة ، وأتساءل هل حقا يوجد فى دار الجبل الدواء الشافى لكل داء ؟ ! .

ومرت أيام بلا جديد سوى أننى وجدت الشجاعة على التخفف من ملابسى مكتفيا بسروال قصير وطاقية . وذات صباح دهمتنى حركة غير عادية منبثة فى الأرجاء وتهامس حميم بين النزلاء حتى هرعت إلى فام أسأله عما هنالك فهتف :

ـ هذه ليلة البدر . . ليلة حضور الإله والعبادة !

فهزنى الخبر ووعدنى بمشهد سعيد حقا من يراه . وذهبت من فورى إلى السوق فالتقيت برفاقى التجار المعسكرين عند مدخله . كانوا ينفقون نهارهم فى العمل وليلهم فى الملاهى . وسرعان ما انهمكوا فى المقايضة بهمة وخبرة . ولاحظت أنهم لا يتعاملون مع الأهالى ، ولكن مع مندوبى السيد صاحب العاصمة فهو البائع

والشارى وحده. أما بقية السوق فعبارة عن ممر أقيمت على جانبيه خيام لبيع الأغذية والأدوات البسيطة كالأمشاط والمرايا الصغيرة والحلى الرخيصة من الخرز.

وتناولت غذائى فى الفندق ثم ذهبت إلى ساحة العبادة والشمس تميل نحو الغروب. وكان الناس من الرجال والنساء يزدحمون فى كثافة هائلة فى شكل دائرة ترك وسطها خاليا. كانوا ينتظرون عرايا وأجسادهم النحاسية تنضح بالعراق وتنفث فى الجو رائحة آدمية مثيرة. وقبل المغيب ركضت سحب فحجبت القبة الزرقاء وتساقط رذاذ مقدار خمس دقائق فتلاقى المطر بهتافات الفرح الصاعدة من الأفواه المترعة بالإيمان والتحفز للمغامرة. وما إن غابت الشمس فى ناحية حتى تهادى البدر صاعدا من الناحية المقابلة عظيما جليلا عذبا واعدا فهلل الناس حتى ذعرت الطيور فى الجو. مضى يصعد مرسلا ضوءه الذهبى على الأجساد العارية الباسطة أذرعها كأنما لتقبض على الضوء السابح. ومر وقت غير قصير فى صمت خاشع حتى استقر القمر فى كبد السماء. عند ذلك ند صوت منذر طويل عن بوق فى مكان ما فانشق طريق فى شمال الدائرة موسعا لقادم وقور، طويل القامة، مرسل اللحية منفوش الشعر، عارى الجسد، تقدم متوكئا على عصا طويلة حتى وقف فى مركز الدائرة. تركزت الأعين على كاهن القمر، وازداد الصمت صمتا. ولبث الرجل فترة جامدا، ثم ترك عصاه تسقط عند قدميه، ورفع رأسه وذراعيه نحو القمر فتبعته الآلاف المؤلفة من الأذرع. وصفق بيديه فانطلق من الحناجر نشيد واحد فى لحظة

واحدة. انطلق بقوة وشمول فكأن الأرض والسماء وما بينهما شاركت فيه منتشية بسكر الغناء ووجد العاشقين. وانسربت إلى أعماقى نغمة مفعمة بالحرارة، مميزة الوحشية والخشونة، مجللة بدوى وأصداء، فجاش صدرى بانفعالات ترتعش باللذة والرهبة. وتصاعدت لذروة الانفجار، ثم أخذت فى الهبوط الوئيد، خطوة فى إثر خطوة، حتى استنامت للهدوء وغاصت فى الصمت. وأنزل الكاهن ذراعيه ونظر فيما أمامه فتبعته الأذرع وتحولت إليه الأعين. والتقط بوقار عصاه فقبض عليها بيسراه وأنشأ يقول: ـ ها هو الإله يتجلى بجماله وجلاله، يحضر فى ميعاد، لايتخلى عن عباده، فنعم الإله وهنيئا للعباد.

ندت عن البحر المحيط همهمة شكر، فواصل الكاهن حديثه:

ـ إنه يقول لنا فى دورته إن الحياة لا تعرف الدوام، وأنها نحو المحاق تسير، ولكنها طيبة للطيب، وبسمة للباسم، فلا تبددوا ثروتها فى الحماقة..

انطلقت من الجناحر زغاريد كالشهب وصفقت الأيدى على إيقاع راقص. واستمر الكاهن يقول:

ـ حذار من الخصام، حذار من الشر، الحقد يفرى الكبد، النهم يتخم البطن ويجلب الداء، الطمع هم وبيل، امرحوا، والعبوا، وانتصروا على الوساوس بالرضى..

وفى الحال ترامت دقات طبول، فاهتزت الخواصر راقصة، لبت نداءها الأثداء والأرداف، وتمادت الحركة منتشرة مترامية

تحت ضوء القمر. رقصت الأرض وباركها البدر، واختلط العناق بالرقص، واندمج الجميع فى غرام شامل تحت ضوء القمر. جعلت أنظر بعينين ذاهلتين، كأننى فى حلم شباب، دمى يشتعل فى عروقى، ورغباتى تتلاطم فى جنون، وقلبى يتوق إلى الجنون. ورجعت أنا أترنح من شدة الانفعال، وقبضة، الشهوة تشد بعنف على أعصابى الملتهبة. ولبثت فى غرفتى بالفندق ساهرا على ضوء شمعة، أدون كلمات فى دفترى، أفكر فى المحن التى تتربص بإيمانى وتقواى، وأتذكر عهد تربيتى الدينية والعقلية على يد الشيخ مغاغة الجبيلى. واستسلمت لأفكارى فى استرخاء بائس حتى اخترقت أذنى بغتة صرخة استغاثة. وثبت قائما متحفزا فوجدتنى فى ظلام دامس، وسرعان ما انتبهت إلى أننى كنت نائمًا، بل إن النوم كان يغشى الكون كله. واستيقظت مبكرا، وقلت وأنا أهم بمغادرة الفندق:

- هل أستطيع كغريب أن أقابل حكيم العاصمة؟

فقال فام:

- هو كاهن القمر، يرحب دائما بلقاء الغرباء، سأعد لك لقاء معه..

وذهبت إلى السوق فلم أجد أحدا من التجار. وأخبرنى القانى بن حمديس أنهم ذهبوا إلى القصر لإنهاء بعض الإجراءات مع حاجب السيد. وسألنى:

- هل قررت أن ترحل مع قافلتى؟

فأجبت بتلقائية :

ـ أجل، لا شئ يستحق المشاهدة بعد . .

ـ صدقت فهو بلد فقير ولكن الرحلات القادمة تعد بمشاهد ثرية . .

فقلت بصدق :

ـ ما يهمنى حقا هو دار الجبل!

فأبتسم قائلا :

ـ متعك الله بأجمل ما خلق . .

واشتدت وطأة الملل والحر، فرحت أسلى نفسى بالمشى فى السوق. ورغما عنى توقفت مذهولا أمام خيمة رجل عجوز يعرض التمر فى أوعية من الخوص. لمحت وراءه فى عمق الخيمة الفتاة الفاتنة، حليمة المشرق النحاسية العارية، وهى تزق حمامة، منطلقة بقامتها الرشيقة ونضجها الذى لم ينل منه السوء بعد. وقفت محملقا ناسيا ذاتى، أرى الماثلة أمام عينى، وأتذكر من خلالها حليمة بوجهها البدرى وعينيها السوداوين عنقها الطويل. أرى تاريخ قلبى كله متجمعا فى لحظة ومثال، وقد التقى فى بؤرته يقظة الماضى وسحر الحاضر وحلم المستقبل. أى هيام ينسكب فى روحى من هذا التكوين الفريد! . أى نداء وأى أسر، رنوت إليها غارقا فيها، متجاهلا أباها العجوز، وحيائى العتيق، وما ألزم به نفسى من قيود الأدب. ونسيت تماما الملل والحر والخطط وأحلام الرحلة وحلم الجبل، وحتى الآمال المدخرة من أجل الوطن.

نسيت كل شئ لأنى ملكت كل شئ وطوانى فى صدره الرضى والقناعة والغنى. وتراجعت الفتاة حتى توارت عن ناظرى فوجدت نفسى منفردا بنظرات العجوز الثابتة. باخ جنونى السعيد فسقطت فى قبضة الحياة اليومية ذات الوساوس والعرق، ومضيت أبتعد. وأدركنى صوت هرم ينادى:

- يا غريب!

فقلت لنفسى فى المحذور وقعت. وتلفت متوقفا. قال برقة:

- تعال..

فدنوت منه فى حياء فسألنى:

- ألم تعجبك ابنتى عروسة؟!

فانعقد لسانى دهشة ولم أجب فعاد سأل:

- ألم تعجبك العروسة؟.. لا مثيل لها فى المشرق!

تمتمت بارتباك:

- معذرة..

فقال بفخار:

- ما رآها شاب إلا أحبها..

فقلت معتذرا وأنا أظنه يسخر منى:

- ما قصدت سوءا قط..

فقال العجوز بحدة :

ـ لا أفهم لغة الغرباء ، أجبنى هل أعجبتك؟

فترددت مليا ثم قلت :

ـ إنها تستحق الإعجاب كله .

ـ أجبنى بصراحة هل أعجبتك؟

فحنيت رأسى معترفا فقال :

ـ ادخل . .

ترددت فتناول يدى وجذبنى إلى الداخل . ونادى عروسه فجاءت بجسمها العارى وجعلت ترنو إلى ، حتى سألها :

ـ ما رأيك فى هذا الغريب المغرم بك؟

فأجابت بلا حياء أو تلعثم :

ـ إنه مطلوب يا أبى . .

فضحك العجوز قائلا :

ـ أخيرا نورك القمر !

ومضى بنا إلى ركن الخيمة وأسدل علينا ستارا . وجدتنى منفردا بها فى أمان كما بدا ولكن فى حيرة أفسدت على السعادة المتاحة الشاملة . أيعنى هذا الزواج فى هذه الدار؟ أيعنى إباحية كالتى شهدتها تمارس تحت ضوء القمر؟ . وراحت تنظر إلى وتنتظر ، وحبى يهفو إليها من تحت غشاء القلق . وسألتها :

ـ ما معنى هذا يا عروسة؟

سألتنى :

ـ ما اسمك ومن أى البلاد أنت؟

ـ اسمى قنديل، ومن دار الإسلام . .

ـ عم تسأل؟

فسألتها وأنا أشير إلى الخارج :

ـ أهو أبوك؟

ـ نعـــم .

ـ أى علاقة بيننا الآن؟

ـ عرف أبى أنك تعجبنى فدفعك إلى؟

ـ هذا هو المتبع هنا؟

ـ طبعا .

وماذا بعد ذلك؟

ـ لا أدرى، لكن لماذا تغطى وسطك بهذه الوزرة؟

وراحت تنزعها بازدراء، ووقفنا نترامق، وفجأة ركعت طارحا على عاتقى كل هم، وضممت ساقيها إلى صدرى . وعند الظهيرة قال لى الأب :

ـ أدعنى إلى الغداء . .

فذهبت وجئت بلحم وفاكهة وتناولنا طعامنا كأسرة واحدة.

وعقب استراحة قصيرة قال العجوز:

- اذهب مصحوبا بالسلامة..

فسألته بقلق:

هل آتى غدا؟

فقال دون مبالاة:

- هذا شأنها وشأنك.. رجعت إلى الفندق فاقد القلب والعقل. تلخصت الحياة كلها فى عروسة. والتمست عند فام مزيد من الضوء فقال:

- هذه العلاقة تمارس هنا بلا قيود، ما إن تعجب فتاة بفتى حتى تدعوه على مرأى ومسمع من أهلها، وتنبذه إذا انصرفت عنه نفسها محتفظة بالذرية التى تنسب إليها..

وكرهت ذلك من صميم قلبى غير أن فام قطع على أفكارى قائلا:

سنذهب عصراً إلى كاهن القمر وهو يرحب بك..

كان حماسى للقاء قد فتر شيئا ما ولكنى استعنت عليه بالعزيمة حتى أنجز كتاب رحلتى على أكمل وجه. واصطحبنى فام عصرا إلى خيمة الكاهن التى قامت فى بقعة خالية، وكان يجلس متربعا على فروة أمام مدخلها فرمقنى متمعنا وقال:

ـ اجلس . . أهلا بك . .

وفارقنا فام فقال الكاهن :

ـ أخبرنى فام أنك تدعى قنديل محمد العنابى وأنك من دار الإسلام؟

فقلت متوددا :

ـ هذا حق . .

فقال وهو ينفذ بعينه فى صدرى :

ـ واضح أنك تجرى وراء المعلومات شأن الرحالة الغريب!

فقلت برقة :

ـ عند الحكيم توجد المعانى التى تخفى على المشاهد العابر . .

فقال بهدوء :

ـ كن صريحا ولا خوف عليك فلن تخرج المعانى إلا لمن يطرق الباب بصدق . .

تفكرت مليا ثم قلت بادئا بالموضوع الذى يستغرقنى :

ـ أعجب ما صادقنى فى المشرق علاقة الرجل بالمرأة . .

فابتسم قائلا :

ـ نصف المصائب فى البلدان إن لم يكن كلها تجئ من القيود المكبلة للشهوة، فإذا شبعت أمكن أن تصير الحياة لهوا ورضى ! فقلت بحذر :

ـ فى دارنا يأمرنا الله بغير ذلك!

ـ عرفت أشياء عن داركم، عندكم الزواج وكثيرا ما يتمخض عن مآس مؤسفة، والناجح منه يستمر بفضل الصبر، كلا يا صاحبى، حياتنا أبسط وأسعد.

فتساءلت بقلق:

ـ قد تزهد المرأة عندكم فى رجلها وهو ما زال مقيما على حبها؟

ـ النساء كثيرات، والسلو يسير، كل متاعبكم تجئ من الحرمان..

ـ حتى الحيوان يغار على شريكته!

فابتسم قائلا:

ـ يجب أن نكون أفضل من الحيوان..

فتمتمت وأنا أخفى تقززى:

ـ لا سبيل إلى التلاقى..

ـ إنى مسلم بهذا، ولكن عليك أن تفهمنا جيدا، إننا ننشد البساطة واللعب، إلهنا لا يتدخل فى شئوننا، إنه يقول لنا كلمة واحدة وهى أنه لا شئ يدوم فى الحياة وأنها إلى محاق تسير، بذلك أشار إلى الطريق فى صمت، أن نجعل من حياتنا لعبا ورضى..

فقلت متشجعا بحرارة الحديث:

ـ لقد سمعت موعظتك، ووجدتها لا تنطبق على السيد المالك لكل شئ . .

فهز رأسه فى أسى وقال :

ـ كثيرا ما يحوم الغرباء حول ذلك، ولكن السيد هو الذى يدفع عن الدار هجمات البدو . وهو ـ وبقية السادة ـ أملنا فى التصدى لأطماع دار مثل دار الحيرة، أجل الحرب تتهددنا، والسادة هم الذين يعدون أنفسهم للدفاع، وهم أيضا الذين يتصدون لأى عدوان فى الداخل فيهيئون للعبيد حياة آمنة، هل تستكثر عليهم بعد ذلك أن يملكوا كل شئ لينفقوا على السلاح والجنود المرتزقة؟!

فقلت متحديا :

ـ يوجد نظام أفضل يوفر للناس كافة حقوقهم ويعدهم للدفاع عن دارهم عند الحاجة!

فمط الرجل شفتيه مضمومتين وقال بحسم :

الكائنات فى دارنا أنواع : نبات، وحيوان، وعبيد، وسادة، ولكل نوع أصل يرجع إليه غير أصول الأنواع الأخرى . .

فقلت وأنا فى غاية الاستياء :

ـ الناس عندنا إخوة من أب واحد وأم واحدة لا فرق فى ذلك بين الحاكم وأقل الخلق شأنا . .

فلوح بيده استهانة وقال :

ـ لست أول مسلم أحادثه، إنى أعرف عنكم أشياء وأشياء، ما

قلت حقا شعاركم ولكن هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر فى المعاملة بين الناس؟

فقلت بحرارة وقد تلقيت طعنة نجلاء :

ـ إنه ليس شعارا ولكنه دين . .

فقال ساخرا :

ـ ديننا لايدعى ما لا يستطيع تطبيقه . .

فقلت وقد شدتنى الصراحة إلى أعماقها :

ـ إنك رجل حكيم، إنى أعجب كيف تعبد القمر وتتصور أنه إله؟!

فقال بجدية وحدة لأول مرة :

ـ إننا نراه ونفهم لغته . هل ترون إلهكم؟

ـ إنه فوق العقل والحواس . .

فقال باسما :

ـ إذن فهو لا شئ!

كدت ألطمه ولكنى كظمت حنقى واستغفرت ربى، وقلت :

ـ إنى أسأل الله لك الهداية .

فقال باسما :

ـ وإنى أسأل إلهى لك الهداية .

وصافحته مودعا، ورجعت إلى الفندق ثائر الأعصاب موجع القلب. وعاهدت نفسى أن أسمع - فى رحلتى - كثيرا وأن أناقش قليلا أو لا أناقش على الإطلاق. وقلت لنفسى متحسرا:

- دينناعظيم وحياتنا وثنية!

ومع اليوم التالى ذهبت مبكرا إلى السوق، إلى خيمة عروسه، رحب بى العجوز باسما وقالت عروسه بدلال:

- تأخرت حتى قلت إنه هرب. .

ولثمت ثغرها فهمت بالذهاب إلى ركننا المستور ولكنى أوقفتها وقلت لأبيها:

- يا والدى أريد أن أتزوج من عروسة.

فقهقه العجوز فاضحا فاه المثرم قال:

- كما تفعلون فى بلادكم؟

- أجل، وفى تلك الحال سأصطحبها معى فى رحلتى حتى نرجع معا إلى وطنى. .

فنظر الرجل إلى ابنته وسأل:

- ماذا ترين يا عروسة.

فقالت عروسه بسرور:

- تحت شرط أن يتعهد بإرجاعى إلى المشرق إذا راق لى ذلك. .

فقلت بلا تردد:

ـ لك هذا يا عروسة!

ـ ولكنى لا أملك حق الموافقة النهائية، فنحن جميعا عبيد السيد وهو مالكنا الشرعى، فاذهب إلى القصر واعرض على الحاجب شراء عروسة . .

اعترضتنى هذه العقبة التى لم ترد لى بحسبان ولكننى لم أجد بدا من تذليلها. وأمضيت نصف النهار مع عروسة فى سعادة وراحة عميقتين. ولما رجعت إلى الفندق أفضيت إلى فام بما يشغلنى فوعد باصطحابى إلى الحاجب. هكذا قدر لى أن أعبر باب القصر، وأن أشهد جانبا من حديقته الضاحكة بأزهارها ونخيلها وأنا فى طريقى إلى ركن الحاجب . .

كان يجلس فى صدر حجرة واسعة على أريكة كبيرة من خشب الورد، مفروشة بالوسائد والمساند الناعمة. كان فوق الستين، بدينا، ثقيل النظرة، مغلفا بالعزلة والكبرياء. لثم فام يده وعرض مطلبى ولكن الحاجب لوح بيده رافضا، وقال:

ـ منعنا البيع لحاجتنا إلى زيادة العبيد.

ونظر إلى وقال:

ـ انضم إلينا إذا شئت كما فعل فام فتندرج فى جملة العبيد وتتمتع بالأمن والرضى والجارية معا . .

فشكرت له كرمه وغادرنا القصر بقلب ينوء بالخيبه والشجن. وقال لى فام ونحن ماضون نحو الفندق:

ـ استمتع بفتاتك حتى تشبع ، وسرعان ما تشبع !

فضاعف من أحزانى وهو لا يدرى . وواصل حديثه قائلا :

ـ لم يكن الوقت مناسبا لإنجاح مسعاك فثمة أنباء عن تحفز الحيرة لإعلان الحرب علينا . .

فسألته بقلق :

ـ وما الأسباب وراء ذلك؟

فضحك بمرارة قائلا :

ـ الطمع فى كنوز السادة والمراعى الغنية ، ولن تعوزهم علة يعتلون بها . .

وساورنى القلق فزاد من متاعب قلبى . وأفترقنا عند أقرب نقطة إلى السوق فذهبت إلى خيمة عروسة من فورى . واستقبلنى العجوز متفحصا وجهى فقال :

ـ خاب مسعاك والقمر . .

وضحكت عروسه ضحكة لا معنى لها فرددت بأسف :

ـ خاب مساعى .

فقال العجوز ضاحكا وهو يومئ إلى عروسه :

ـ أنها تنتظرك !

فقلت بأسى :

ـ يعز على أن تكون علاقتى بها عابرة .

فقال العجوز ساخرا :

ـ كل علاقة عابرة يا غريب .

فقلت بحرارة :

ـ تمنيت أن تكون دائمة .

فقال مقهقها :

ـ يا لك من رحالة أنانى . .

ثم وهو يواصل القهقهة :

ـ حذار من التعقيدات فنحن قوم بسطاء ونحب البساطة !

ـ كأنكم لا تعرفون الحب !

ـ نعرف أنه متعة ليلة أو أسبوع أو شهر أو عام فى الأحوال الجنونية . فماذا تريد أكثر من ذلك؟

سألته جادا :

ـ ماذا تقترح لمجنون مثلى؟

ـ استأجرها لمدة تتجدد حتى تنتهى !

ـ هل أرجع فى ذلك إلى الحاجب أيضا؟

ـ كلا ، هذا حقى بصفتى والدها ، أى مدة تريد؟

ـ أطول مدة ممكنة .

ـ استأجرها شهرا بشهر .

ـ ليكن .

ـ ولكن الاتفاق ينتهى حال ترغب هى فى ذلك .

فحنيت رأسى موافقا فقال :

ـ الشهر بثلاثة دنانير . .

تم الاتفاق ومضيت بعروسة إلى حجرتى بالفندق . صممت على ألا أفسد سعادتى ، وأن أعتبر الساعة الراهنة هى العمر كله . ولكنى قلت لها برجاء :

ـ دعينى أستر جمال جسدك .

فقالت بانزعاج :

ـ لا تجعل منى أضحوكة .

فتراجعت مسلما بكل شئ . وتراءت لى وهما سعيدا ينذر بالزوال فلذت بها بقلب يطارده شبح الفراق والحزن . ولكن الحياة طابت مع الفاتنة الرائعة ، ووعدت بالاستقرار والأمان للقلب والأعصاب . وكانت تحب الانطلاق فى المراعى والتجول فى السوق فسرنا معا فى حبور ، ورآنى القانى بن حمديس فأقبل نحوى قائلا :

ـ نحن راحلون مع الفجر .

فقلت فى حياء :

ـ ولكننى باق .

فقال ضاحكا :

ـ ستجد قافلة كل عشرة أيام . .

إنى مستغرق بالحب ولا شأن لى بالزمن . لا أهمية الآن للرحلة ولا للمهمة ، ولو بقيت لآخر العمر . وها هى بشائر الأمومة تهل بأفراحها القلبية وأسقامها الجسدية فأستعيذ بها من تقلبات القلوب وجوامح الأهواء ، وأطمح إلى مستقرة ولو ربطتنى فى النهاية بالمشرق ، وغيرت بشرتى وأحلامى . وقلت ساخرا من نفسى :

ـ يبدو أننى خلقت للحب لا للرحلات!

ودار الزمان فجاءت ليلة البدر وهرع العباد إلى ساحة العبادة . ذهبنا إلى الساحة زوجين حتى انحشرنا فى الزحام . هناك قالت لى بجدية :

ـ هذه ليلة الإله ينفصل فيها القرين عن قرينه . .

وفرت من بين يدى فذابت فى الجموع . لبثت وحيدا مضطربا غاضبا مسلوب الإرادة والسرور . وتتابعت الطقوس وأنا أتساءل عما تفعله مع آخر غريب . ولما جاءت ساعة العناق تعرضت لى امرأة فى الأربعين على شئ من الجمال وفتحت لى ذراعيها ، رأيت فيما يقع لى ما يقع مع عروسة فى مكان ما . ودار السقاة بخمر البلح فشربت قدحا ، فغبت عن وعيى واندمجت فى صلاة المشرق . وعند الفجر تكومت مقرفصا عند مدخل الفندق حتى وافتنى عروسة وهى تترنح . نهضت إليها واجما فتأبطت ذراعى إلى حجرتنا وهى تسألنى :

ـ أعجبتك المرأة؟

فقلت بمرارة :

ـ لقد نجسنا علاقة مقدسة يا عروسة . .

فقالت بانزعاج :

ـ إنك غير مؤمن يا قنديل ولا حيلة لى فى ذلك .

ثم أقبلت على باسمة وهى تقول :

ـ ما زلت أحبك، ما زلت رجلى الوحيد . .

أعترف بأن حبى لم يضعف، وبأن الخوف من الفراق كان يلهبه . باتت سعادتى وشقائى . وحرقنى الصيف فهو جحيم، وفيه تنمحق الخضرة وتقتات الماشية على المخزون المجفف من الأعشاب، ويجئ الخريف فتهدأ النيران قليلا ويسقط الرذاذ من حين لحين، ثم يقبل الشتاء بجوه اللطيف المعتدل وأمطاره الغزيرة فتحيا الأرض وتطرب الماشية ويظل العراة عراة . وتنجب عروسة وليدها الأول فيسمى «رام ابن عروسة» كأنما أنجبته وحدها ولا شأن لى به . ويقول لى أبوها :

ـ ها أنت تدخل فى عامك الثانى وهى مازالت تحبك، أأنت ساحر يا غريب!! .

وبزغت بشائر أمومة جديدة فجاء عام ابن عروسة، وتبعه بعد عام لام ابن عروسة وحملت للمرة الرابعة حتى اشتهرت علاقتنا بين القوم بالشذوذ، وقيل إنى أشدها إلى بقوة السحر الذى لقنته

فى دار الإسلام. وانسقت وأنا لا أدرى إلى تربية رام على مبادئ الإسلام. وكان ينمو أقوى وأسرع من أقرانه لما أوفره له من عناية غذاء وقد أعطى مثالا لما كان ينبغى أن يكون عليه أطفال المشرق لولا الظلم والعبودية. كفرت بتلقينه مبادئ الإسلام عن أهمالى الاضطرارى لعقيدتى احتراما للبلد الذى يؤوينى، غير أن العروسة لم تخف استياءها وقالت لى بجدية:

ـ أنك تنشئه على الكفر وتعده لحياة تعيسة فى بلده..

فقلت برقة:

ـ أنى أنقذ روحه كما تمنيت أن أنقذ روحك ذات يوم..

فقالت بصرامة:

ـ لن أسمح لك بهذا أبدا..

تبدت صارمة عنيدة حتى جزعت خوفا على حبى. وأفضت إلى أبيها بهمومها ونحن فى زيارة له فهاله الأمر وصاح بى:

ـ ابعد عن ابننا يا غريب..

وخيل إلىّ أن النبأ تسرب إلى الخارج، رغم تكتمنا له، أن نظرات الغضب تحرقنى فى الطريق. وطاردنى القلق حتى قلت لنفسى:

ـ البناء مهدد بالانهيار..

وصدق حدسى فجاءنى فام صاحب الفندق فأخذنى من حجرتى إلى حجرته حيث وجدت ضابط شرطة فى انتظارى. سألنى:

فأجبت بريق جاف :

ـ نعـــم .

فقال بجفاء :

ـ ثبت أنك تحاول تنشئة ابنك الأكبر على الكفر . .

فسألته بجزع :

ـ كيف ثبت هذا؟

ـ نحن أدرى بواجبنا ، اسمع فلن أحضر للمناقشة ، صدر أمر السيد بالتفرقة بينك وبين رفيقتك وأبنائها ، وأن ترحل عن المشرق مع أول قافلة . .

هممت بالكلام ولكنه قال بغلظة :

ـ لم أحضر للكلام ، أنت محجوز معى حتى يذهبوا بالمرأة والأولاد إلى أبيها ، وستظل تحت الحراسة حتى تلحق بالقافلة . .

فقلت بضراعة :

ـ دعنى أودعهم . .

فقال بخشونة :

ـ لقد وقع عليك أخف جزاء فكن شكورا . .

ورجعت إلى حجرتى بعد ساعة ـ التى تحولت إلى السجن ـ فوجدتها خالية من الأم والأولاد والحب والأمل . لحظة كئيبة تنداح فى أعماق النفس فتنكشف الحياة عن حلم أو وهم . ولحق بى فام فرمقنى بعطف وقال :

ـ تحمل كما يجدر برجل رحالة !

فقلت بصوت متهدج :

ـ حزنى شديد جدا يا فام . .

تفرس فى وجهى قليلا ثم قال :

ـ أطلق دموعك ، الرجال يبكون أحيانا . .

فقلت وأنا أشد على محابس دموعى :

ـ تبخرت مسرات الحياة . .

ـ إنها تتجدد وتجئ أيضا بالعزاء . .

وربت منكبى ثم قال :

ـ تعلم أن الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة . .